

دروس من هدي القرآن الكريم

معنى التسييح

ألقاها السيد / حسين بدر الدين الحوثي

بتاريخ: ٢٧ من ذي القعدة ١٤٢٢هـ

الموافق: ٢٠٠٢/٢/٩م

اليمن - صعدة

هذه الدروس نُقِلَتْ من تسجيل لها في أشرطة
(كاسيت) وقد أُلْقِيَتْ ممزوجةً بمفرداتٍ وأساليبٍ
من اللهجة المحلية العامية.
وحرصاً منا على سهولة الاستفادة منها أخرجناها
مكتوبة على هذا النحو.
والله الموفق.

إعداد: يحيى قاسم أبو عَوَّاضَة

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

قبل أن نبدأ بالدرس، بعض الشباب قدّم سؤالاً حول معنى التسبيح في الصلاة: (سبحان الله العظيم وبحمده، سبحان الله الأعلى وبحمده).

التسبيح في الصلاة جاء في القيام، في الركعتين الأخيرتين، وفي الركوع، وفي السجود، ويدل ذلك على أهمية التسبيح، وعلى حاجتنا نحن، حاجتنا نحن البشر إلى تسبيح الله سبحانه وتعالى.

تسبيح الله معناه: تنزيهه وتقديسه. تنزيهه عما لا يليق به، تنزيهه عن نسبة أي شيء إليه يتنافى مع عدله وكماله المطلق سبحانه وتعالى، يتنافى مع حكمته، مع رحمته، مع عظمته وجلاله.

التسبيح يمثل قاعدة مهمّة، ومقياساً مهماً جداً؛ لذلك كان من المهم أن يتكرر في الصلاة التي تتكرر في اليوم

خمس مرات، وأمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بتسبيحه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا *

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الأحزاب: ٤١، ٤٢) ﴿قَسْبَحَانِ اللَّهُ حِينَ ثَمَسُونَ وَحِينَ تُصِيحُونَ﴾ (الروم: ١٧).

ووردت أخبار بأذكار معينة: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي

العظيم) روي عن الإمام زيد عليه السلام عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال في هذه التسبيحة: (إن من

سبّحها مائة مرة في اليوم دفع الله عنه سبعين نوعاً من البلاء أدناها القتل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله

والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

التسبيح - كما قلت سابقاً - يعتبر قاعدة مهمّة جداً، نكرر التسبيح في صلاتنا، وفي كل أوقاتنا ليرتسخ معناه،

فتكون نظرنا إلى الله سبحانه وتعالى نظرة تقوم على أساس تنزيهه وتقديسه سبحانه وتعالى؛ لأننا لما كانت

إدراكاتنا محدودة، وما يمكن أن تتعقله من الأشياء أيضاً تكون إمكانية التعقل لدينا محدودة أيضاً، وأفعال الله

سبحانه وتعالى قد يكون هناك أفعال من أفعال الله، شيء من مخلوقات الله سبحانه وتعالى لا نفهم نحن وجه

الحكمة فيها، لا ندرك نحن الغاية من فعلها، أو من تشريعها، أو من خلقها، فإذا كنا نستشعر - دائماً - تنزيه الله

سبحانه وتعالى في ذاته وفي أفعاله، وفي تشريعاته، فستكون هذه القاعدة هي التي تحافظ على سلامة إيماننا

بالله، وحسن ظننا به، واستمرار إيماننا بنزاهته وقديسيته سبحانه وتعالى.

وما أكثر ما نجهل من الأشياء في مخلوقات الله، وفي تشريعات الله! ما أكثر ما نجهل وجه الحكمة فيها، أو إدراك

الغاية منها! ولكننا نقطع بأن الله سبحانه وتعالى ما دام وقد ثبت أن هذا فعله فهو الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه

حكمة، ونقطع فيما ثبت لنا من تشريعه وهدايته مما لا ندرك وجه الحكمة فيه: أن الله لا يشرع إلا تشريعاً فيه

حكمة، فليس هناك عبث في أفعاله، ليس هناك تلاعب في أفعاله سبحانه وتعالى، هو الحكيم.

التسبيح لله سبحانه وتعالى أيضاً أمام ما نسمع من هنا أو هنا من مقولات تُنسب إلى الله سبحانه وتعالى. فنحن

سنعتمد على هذه القاعدة، وسيتجلى لنا من خلالها بطلان ذلك القول، أو تلك العقيدة لأنها تخالف ما يجب علينا

أن نحكم به، ونعتقد به، وننطق به من تنزيه الله.

وقد جاء التسبيح - كما كررنا ذلك في جلسات متعددة - جاء التسبيح لله سبحانه وتعالى واسعاً جداً ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا

فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (الجمعة: ١) ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (الحشر: ١) الملائكة كما حكى الله عنهم

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْثُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٠) فهذا الاستنفاذ العام لكل المخلوقات أن تنطلق في تسبيح الله تعالى

بلسان المقال، ولسان الحال يدل على أهمية أن تتعقل التسبيح، يدل على أهمية أن تملأ نفوسنا مشاعر التنزيه لله

سبحانه وتعالى، وأن من يغفل عن هذه القاعدة سيقع في الضلال، تفسد عقائده، يؤمن بالباطل، فينسب إلى الله

القبائح، ينسب إليه الفواحش، ينسب إليه الظلم، وهذا ما حصل عند كثير من البشر، يجعلون لله شركاء، يجعلون

لله أنداداً، يجعلون معه آلهة، هذا ما حصل عند كثير من البشر، وهو حاصل عند كثير من المسلمين، هناك عقائد

كثيرة منتشرة عند أغلب المسلمين تتنافى منافاة صريحة مع جلال الله، وقديسيته، وحكمته، وعظمته، فأولئك

يسبحون الله بأفواههم، ويرون كم عرّض القرآن الكريم من آيات تؤكد أهمية التسبيح، ولكنهم قد انعقدت قلوبهم

على عقائد معينة استوحوها من أحاديث، فلم يعودوا إلى القرآن بالشكل المطلوب، ومن عاد إلى كتاب الله سبحانه

وتعالى فلن تفسد عقيدته ولن يضل.

نحن نسبح الله في الصلاة أثناء القيام، نسبحه أثناء الركوع، نسبحه أثناء السجود، ذلك يعني: أنه يجب علينا أن نسبح الله سبحانه وتعالى في كل أحوالنا، في كل الأحوال التي تمر بنا نحن، عندما يحصل لك مرض شديد، عندما يحصل لك شدة من المصائب، أو من الفقر، أو من أي نكبة تحصل عليك، أو أي مشكلة تقع فيها يضيق بها صدرك. بعض الناس يسيئ الظن بالله، وهذا حصل في يوم الأحزاب عند بعض المسلمين: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنَّ﴾ عندما حاصرهم المشركون فحصل لديهم رعب كما حكى الله عنهم في (سورة الأحزاب): ﴿هَٰذَا لِكَيْ تَبْلُغَ الْأُمُورَ وَلِتُنَظَّرَ الْأَعْيُنَ وَأَلَّا تَكُونَ لَهَا مِثْلَ خَبْرٍ ۗ أُولَٰئِكَ السَّيِّئُ الظَّنُّ ۖ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ خَيْرًا ۚ﴾ (الأحزاب: ١٠) بدأت الظنون السيئة.

عندما يدخل الناس في أعمال، وتكون قد قرأنا قول الله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ (الحج: ٤٠) فيمر الناس بشدائد، إذا لم تكن أنت قد رسخت في قلبك عظمة الله سبحانه وتعالى، وتنزيه الله أنه لا يمكن أن يخلف وعده فأبحث عن الخلل من جانبك: أنه ربما نحن لم نوفر لدينا ما يجعلنا جديرين بأن يكون الله معنا، أو بأن ينصرنا و يؤيدنا، أو أبحث عن وجه الحكمة إن كان باستطاعتك أن تفهم، ربما أن تلك الشدائد تعتبر مقدمات فتح، تعتبر مفيدة جداً في آثارها. وقد حصل مثل هذا في أيام الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديبية، عندما اتجه المسلمون وكانوا يظنون بأنهم سيدخلون مكة، ثم التقى بهم المشركون فقاطعوهم فاضطروا أن يتوقفوا في الحديبية، ثم دخل الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مصالحة معهم، وكانت تبدو في تلك المصالحة من بنودها شروط فيها قسوة، لكن حصل في تلك المصالحة هدنة، هدنة لعدة سنوات كأنها لعشر سنوات تقريباً.

لاحظ ماذا حصل؟ بعد ذلك الصلح الذي دُون وفيه بنود تبدو قاسية، وظهر فيه المسلمون وكأن نفوسهم قد انكسرت، كانوا يظنون بأنهم يدخلون مكة، ثم رأوا أنفسهم لم يتمكنوا من ذلك فرجعوا، بعد هذه الهدنة توافدت الوفود على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من مختلف المناطق في الجزيرة العربية واليمن وغيرها، وفود إلى المدينة ليسلموا؛ فكان ذلك يعتبر فتحاً، وكان فتحاً حقيقياً في ما هيئاً من ظروف مناسبة ساعدت على أن يزداد عدد المسلمين، وأن يتوافد الناس من هنا وهناك إلى المدينة المنورة إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليدخلوا في الإسلام، فما جاء عام الفتح في السنة الثامنة إلا ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد استطاع أن يجند نحو اثني عشر ألفاً (الذين دخلوا مكة).

إذا كان الإنسان ضعيف الإيمان، ضعيف الثقة بالله، ضعيف في إدراكه لتنزيه الله سبحانه وتعالى قد يهتز عند الشدائد، إما أن يسيئ الظن في موقفه: (ربما موقفنا غير صحيح وإلا لكننا انتصرنا، لكننا نجحنا...) تحصل ربما، ربما... إلى آخره، أو يسيئ الظن بالله تعالى وكأنه تخلى عنا، وكأنه ما علم أننا نعمل في سبيله، وأننا نبذل أنفسنا وأموالنا في سبيله: لماذا لم ينصرنا؟ لماذا لم...؟

الإنسان المؤمن يزداد إيماناً مع الشدائد: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣) لأن الحياة كل أحداثها دروس، كل أحداثها آيات تزيدك إيماناً، كما تزداد إيماناً بآيات القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (الأنفال: ٢) كذلك المؤمن يزداد إيماناً من كل الأحداث في الحياة، يزداد بصيرة، كم هو الفارق بين من يسيئون الظن عندما تحصل أحداث، وبين من يزدادون إيماناً؟ وهي الأحداث نفسها، أليس الفارق كبيراً جداً؟ لماذا هذا ساء ظنه، وضعف إيمانه، وتزلزل وتردد وشك وارتاب، وهذا ازداد يقيناً وازداد بصيرة وازداد إيماناً؟ هذا علاقته بالله قوية، تصديقه بالله سبحانه وتعالى، وثقته بالله قوية، تنزيهه لله تنزيه مترسخ في أعماق نفسه، يسيطر على كامل مشاعره فلا يمكن أن يسيئ الظن بالله مهما كانت الأحوال، حتى ولو رأى نفسه في يوم من الأيام وقد جثم على صدره (شمر بن ذي الجوشن) ليحتز رأسه كالإمام الحسين (عليه السلام).

حادثة كربلاء ألم تكن حادثة مؤلمة جداً؟ كانت كلمات الإمام الحسين فيها تدل على قوة إيمانه، كمال وعيه، كمال يقينه، بصيرته، كان همه من وراء كل ذلك أن يكون لله فيه رضا، ما دام وفيه رضا لك فلا يهمني ما حصل. وهذه هي نفسية المؤمن، نفسية المؤمن: هي أن ينطلق في أعماله يريد من ورائها كلها رضا الله. رضا الله هو الغاية. وإن وضع له أهدافاً مرحلية، وداخلية، هي ليست كل شيء لديه، ليست كل شيء لديه، فإذا لم يتحقق ذلك شك وارتاب، أن يجندوا أنفسهم لمعركة ما مع أعداء الله ثم ينهزموا، أو يرون أنفسهم مضطرين إلى

أن يتصالحوا صلحاً مؤقتاً، فيرجعوا بنفوس مرتابة (لماذا؟ ألم نسمع أن الله تعالى قال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠، لماذا، لماذا؟) المؤمن هدفه هو أن يحصل على رضا الله، وأن يكسب رضا الله، وأن يكون في أعماله ما يحقق رضا الله، وأن النصر الذي يريده، النصر الذي ينشده هو نصر القضية التي يتحرك من أجلها، هي تلك القضية التي تتطلب منه أن يبذل نفسه وماله، فإذا كان مطلوب منك أن تبذل نفسك ومالك فهل ذلك يعني بالنسبة لك نصراً مادياً شخصياً؟ الذي يبذل ماله ونفسه فيقتل في سبيل الله، هل حصل له نصر مادي شخصي؟ هو انتصر للقضية، هو حصل على الغاية التي ينشدها، حتى وإن كان صريعاً فوق الرمضاء، ألم يصبح شهيداً؟ حظي بتلك الكرامة العظيمة التي وعد الله بها الشهداء، دمه ودم أمثاله، روحه وروح أمثاله، أليست هي الوسيلة المهمة لتحقيق النصر للقضية؟

المؤمن لا ينظر إلى نفسه، النصر الشخصي، المقصد الشخصي، قضيته الخاصة، خطته المعينة، موقفه الخاص. المسيرة هي المسيرة الطويلة: العمل على إعلاء كلمة الله، النصر لدين الله، في هذه المرة أو في المرة الثانية أو في المرة الثالثة، إن لم يكن على يديك أنت فقد يكون على يد آخرين ممن هيأتهم أنت، وهكذا... حتى تنتصر، ولا بد أن يتحقق النصر.

وأنت منتصر أيضاً عندما تسقط شهيداً في سبيل الله، أنت منتصر أيضاً، أنت عملت ما عليك أن تعمله فبذلت نفسك ومالك في سبيل الله. فأن يرى المسلمون أو يرى المؤمنون بعضهم صرعى في ميادين الجهاد كما حصل في يوم أحد، ألم يتألم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما رأى حمزة صريعاً؟ وصرع كثير من المجاهدين، ولكن هل توقف بعدها؟ لم يتوقف أبداً، وإن كانت تلك خسارة أن يفقد أشخاصاً مهمين كحمزة لكنه نصر للمسيرة، نصر لحركة الرسالة بأكملها، ولا بد في هذه المسيرة أن يسقط شهداء، وإن كانوا على أرفع مستوى، مثل هذا النوع كحمزة سيد الشهداء.

المهم أننا نريد أن نقول: إنه في حالات الشدائد وهي الحالات التي يضطرب فيها ضعفاء الإيمان، يضطرب فيها من يفقدون نسبة كبيرة من استشعار تنزيه الله سبحانه وتعالى، الذي يعني تنزيهه عن أن يخلف وعده وهو القائل: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وفعلاً لو تتوفر عوامل النصر لدى فئة، تكون على المستوى المطلوب، ويوفرون أيضاً من الأسباب المادية ما يمكن أن يوفره، لا شك أن هؤلاء سيحققون نصراً كبيراً. ولا يعني النصر: هو ألا يتعبوا، ألا يستشهد منهم البعض أو الكثير، ولا يعني النصر هو ألا يحصل لهم من جانب العدو مضايقات كثيرة، ولا يعني النصر: هو ألا يحصل منهم سجناء. إنهم مجاهدون، والمجاهد هو مستعد لماذا؟ أن يتحمل كل الشدائد في سبيل الانتصار للقضية التي من أجلها انطلق مجاهداً، وهو دين الله.

عمار بن ياسر في أيام صفين كان يقول: (والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سَعَفَاتِ هَجَرٍ - قرى يشير إليها في البحرين - لعلمنا أننا على الحق وأنهم على الباطل). يقول: لو هزمننا معاوية وجيشه حتى يصلوا بنا البحرين لَمَا ارتبنا أبداً في أنهم على باطل وأننا على حق. إنسان واع، إنسان فاهم، يعرف طبيعة الصراع، يعرف ميادين الجهاد التي تتطلب من هذا النوع، يحصل فيها حالات كَرْ وَفَرٍّ، يحصل حالات تداول في الأيام فيما بين الناس، يحصل كذا، يحصل كذا.

فهو لا ينطلق على أساس فهم قاصر للمسألة، أن يفهم قول الله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ إذا سيتحرك وبالتالي فلن يلاقي أي صعوبة، وأن معنى تأييد الله هو إمداد غيبي له بحيث لا يلاقي أي عناء، ليس هذا هو الفهم المطلوب، وأنت واثق من المسيرة التي تسير عليها أنها مسيرة حق، والمواقف التي تتحرك فيها أنها مواقف حق، هذا شيء مهم، ثم ثق، وعندما تثق هل تثق بنصرك شخصياً؟ يجب أن تُلغى، وإلا فسيكون من ينظرون إلى أنفسهم شخصياً، أن يتحقق لهم شخصياً كل تلك الوعود فهم من قد يضطربون عند أول شدة يواجهونها.

انظر لماذا تتحرك؟ هل أنت تتحرك في سبيل الله؟ ألم تكن هذه العبارة هي التي تكررت في القرآن الكريم بعد كلمة: (يجاهدون، جاهدوا، جاهدوا في سبيل الله، في سبيل الله، في الله؟ هذه هي الغاية، هو الهدف الذي من أجله أتحرّك، أنا أتحرّك في سبيل الله، وأن التحرك في هذا الميدان هو يتطلب مني أن أصل إلى استعداد بأن أبذل نفسي ومالي. أليس معنى ذلك إلغاء النظرة الشخصية والمكسب الشخصي؟ أن أتحرّك في هذا الميدان لأحقق النصر لدين الله، والعمل لإعلاء كلمته وإن كان ذلك بماذا؟ ببذل نفسي ومالي، أليس معناها التلاشي، التلاشي المادي بالنسبة

لي: وجودي، جسدي، وماديات أموالي؟ أليس المعنى هكذا؟ إذاً فليس هناك مجال للتفكير في النصر الشخصي، كل شخص ينطلق على أساس أنه يريد أن يتحقق له النصر الشخصي. لا. ربما قد يكون مكتوب لك أن تكون من الشهداء، هذا هو النصر الشخصي، النصر الشخصي بالنسبة لك حتى لو لم تكتمل المسيرة، أو جبن الآخرون من ورائك، أما أنت فقد حققت النصر، قمت بالعمل الذي يُراد منك أن تقوم به، وبذلت كل ما بإمكانك أن تبذله، فأنت قد نصرت القضية على أعلى مستوى، وتحقق لك النصر، وأليس نصراً عظيماً أن تكتب عند الله من الشهداء الذين قال عنهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَرِّقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩، ١٧٠) أليس هذا هو نصر؟

تنزيه الله سبحانه وتعالى الذي يعني: تنزيهه في ذاته، فلا يمكن أن نصفه بما يستلزم منه أن يكون مشابهاً لمخلوقاته أبداً. تنزيهه في أفعاله هو، فلا يمكن أن نتهمه في فعل من أفعاله أنه صدر منه مخالفاً لمقتضى الحكمة، مخالفاً لما يليق بجلاله وحكمته وعظمته، تنزيهه في ألا ننسب إليه - فيما يتعلق بوعوده - أنه يخلف الميعاد، أنه لم يف بوعده ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾ (البقرة: ٤٠) تنزيهه في تشريعه أيضاً، أن يشرع ما يتنافى مع كماله سبحانه وتعالى، أن يشرع لنا ما يتنافى مع قدسيته، مع عظمته، مع جلاله، مع حكمته، مع عدله. كل ما يتنافى مع ذلك لا يمكن أن يشرعه الله سبحانه وتعالى لعباده.

هو الذي لعن الظالمين، هل يمكن أن يوجب عليّ طاعتهم؟ لا. فمن يأتي ليقول: إن الحاكم الفلاني هو خليفة المسلمين يجب طاعته لأنه أصبح ولي الأمر فتجب طاعته، فهو يحدثني بكلمة: (تجب طاعته) يضيف على المسألة امتداداً تشريعياً، أي أن الله أوجب عليّ طاعة هذا، أليس كذلك؟ أي: أن من شريعة الله، من دين الله أن أطيع هذا. هذا لا يمكن أبداً أن يكون من دين الله، لا يمكن أبداً أن يكون مما يرضى به الله سبحانه وتعالى. وهكذا ظهرت أشياء كثيرة جداً نسبت إلى دين الله سواء في مجال العقائد، في المواقف، في التشريعات الأخرى، قد يلقاها أي إنسان طالب علم، فإذا كان ينطلق من هذه القاعدة: (تنزيه الله سبحانه وتعالى) فسيرى كم ستفيد هذه القاعدة، وسيرى البصيرة العظيمة التي تتحقق له من وراء اعتماده على هذه القاعدة، قاعدة ماذا؟ تنزيه الله سبحانه وتعالى.

الله يعلم أن كثيراً من عباده سينسبون إليه ما لا يليق به فأوضح لنا نحن خطورة المسألة على أنفسنا في نظرنا إلى الله سبحانه وتعالى، خطورة المسألة على أنفسنا فيما يتعلق بواقع الحياة، فأبان لنا في القرآن الكريم الآيات التي تدل على ماذا؟ على أن قضية تنزيهه قضية مهمة استنفرت لها كل مخلوقاته: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (الجمعة: ١) أليس هذا استنفاراً عاماً لكل المخلوقات؟ طبعها بأن تسبحه، ما كان منها بلسان المقال، وما كان منها بلسان الحال، فهو يشهد بأنه - فيما هو عليه - يشهد بنزاهة الله.

التنزيه لله سبحانه وتعالى ليس فقط مجرد حكم ببراءته من كذا، عندما نقول في صلاتنا أثناء الركوع: (سبحان الله العظيم وبحمده) ألسنا نقول: (وبحمده)؟ التنزيه الذي يجب أن ينطلق منا نحو الله سبحانه وتعالى ليس فقط مجرد التبرئة وإصدار حكم ببراءته من كذا، بل التنزيه المتلبس بالثناء عليه.

وكمثال على هذا أنت تجد من الناس من إذا نسب إليه أنه عمل عملاً سيئاً، ولكن لم تثبت إدانته فحكمنا ببراءته فقط، قلنا: هو بريء. هل في هذا ثناء عليه؟ هو بريء، لكن أن يُنسب ذلك الفعل إلى شخص أنت تعرفه بالتقوى، بالعبادة، بالصالح، بزكاء نفسه، بطهارة روحه، وتعرفه عمره لم يحدث منه مثل هذا الشيء، كيف ستقول أنت؟ ستقول: أبداً، هذا لا يمكن أن يحصل منه كذا وهو كذا، ونحن نعرفه أنه كذا، وهو من أولياء الله، وهو، وهو... إلخ. ألسنا سنقول هكذا؟ هذا هو التنزيه المتلبس بالثناء، أي مترافق بالثناء، والذي يقدم في ماذا؟ في صيغ متلبسة بالثناء تقول: أبداً، لا يمكن يحصل منه هذا، نحن نعرفه إنساناً ولياً من أولياء الله، وإنساناً متديناً وعاقلاً، و... إلخ.

فنعرف الفرق بين مجرد البراءة ومطلق البراءة، التبرئة، وبين التبرئة المتلبسة بالثناء أيهما أفضل؟ التبرئة المتلبسة بالثناء. فنحن نقول: (سبحان الله العظيم) نسبحه: ننزهه (وبحمده) بالثناء عليه ننزهه: لأنه إنما يستحق الثناء من هو منزله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أليست هذه أول سورة الفاتحة؟ بعد: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ ﴿١﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢٠١) أول آية بعد البسملة تُصدَّر بالثناء على الله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أن يكون هو أهلاً للثناء عليه، أن يكون هو من يستحق الثناء عليه، فأن يثنى على نفسه، ويثنى عليه عباده ذلك يعني أنه منزّه، أنه الكامل الذي لا يليق به، لا يليق بكماله، لا يليق بجلاله أن يصدر منه هذا الشيء، أو هذا الشيء، أو أن يكون على هذا النحو في ذاته، أو أن يصدر منه هذا الفعل السيئ، هذا معنى: (سبحان الله العظيم وبحمده، سبحان الله الأعلى وبحمده) الحمد معناه: الثناء على الله سبحانه وتعالى.

فأنت تثنى الله في كل حالاتك، وأنت تحمده في كل حالاتك، تثنى عليه في كل حالاتك، في حالة القيام، في حالة الركوع، في حالة السجود، فيما قد توحى به هذه الحالات الثلاث داخل الصلاة من حالات في واقع حياتك تمر بها أنت. أليس الإنسان يمر في حياته بأحوال فيرى نفسه: مرتاحاً، بخير، متوفراً له حاجياته، لا يوجد عنده مشكلة، قد يحصل له مواقف تركّعه، قد تحصل له مواقف أكبر أو مشاكل، هل الإنسان يبقى منتصباً في حياته دائماً؟ يمرّ بمشاكل. العرب كانوا يمثلون للمصائب الكبيرة بـ (الدواهي) أو بـ (قاصمة الظهر) أو يقولون: (ثقل الكاهل) بعبارات من هذه تصوير للإنسان وكأنه فيما إذا وقعت عليه مشكلة، أو مصيبة أو عانى معاناة من مرض في بدنه، أو مرض بأحد من أصدقائه، أو أفراد أسرته يتبادر إلى الذهن وكأنه شيء يثقل كاهله وسيُحنيه.

أنت في كل حالاتك كن مسبّحاً لله، كن واثقاً بالله، وفي كل الحالات يكون همّك هو رضا الله، متى ما عرفت أن المعاناة التي أنت فيها هي في سبيله، المعاناة التي أنت فيها ليست خنوعاً لأعدائه، ليست ذلاً تحت وطأة أعدائه، تحمّل واصبر، وهذا هو المطلوب من المؤمن أن يتجلّد، أن يكون لديه حالة من الجلد، التجلد والتصبر. هذا النوع من المؤمنين هو الذي يستطيع أن يقف المواقف المهمة في سبيل إعلاء كلمة الله، أما الذي يسقط من أول شدة يتعرض لها، سواءً تحصل له شداًء في نفسه، بعض الناس قد يرى نفسه متى ما توجه توجهاً إيمانياً ثم مرض أحد من أقاربه، ثم حصل برّد على أمواله، ثم حصل كذا، وهو يتجه هذا الاتجاه، فيحاول أن يتخذ قراراً آخر بأن يترك، فيدعو الله فلا يرى أنها استجيبت دعوته، يرجع ينفر في الله: "كم ادّعينا وما جوب، ما هو نافع إلا يقوم واحد هو يدور، يتحرّك هو" (١) هذه كلها تدل على جهل شديد، جهل شديد بالله سبحانه وتعالى، جهل بالحياة، جهل بقصورنا أننا قاصرون، أننا ناقصون.

أنت تعيش في حالة تمنن على الله سبحانه وتعالى عندما ترى بأنك: الحمد لله، أصبحت تتجه باتجاه الفئة الفلانية، أو نحن: الحمد لله، أصبحنا الآن اتجاهنا متدينين - كما يقال - "ثم قد أنت منتظر من بعد، ولا عاد أي شيء يمسك، قد أنت منتظر إنك ما عاد تلقى أي مصيبة". "ها ما عاد نشتي يحصل أي حاجة" (٢). قد تأتي أشياء أخرى هي بما كسبت يدك، أو أشياء أخرى هي بما كسبت أيدي الآخرين من المجرمين، ثم تغضب على الله؛ لأنك لم تعرف بأنك لا تزال قاصراً وناقصاً أنت.

نحن قلنا في محاضرة يوم الخميس (٣) حول قول الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) وهو الإنسان الكامل في إيمانه، في تقواه، في طهارة نفسه، في حرصه على هداية عباد الله. عندما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (محمد: ١٩) ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ٢٠١). فأنا عندما أرى نفسي بأنني أصبحت لا ذنب لي، ماذا يعني هذا؟ أصبحت وكأنه ليس هناك أي ذنب لديّ إطلاقاً، لم يبق إلا أن أنتظر "أما الآن قد القضية عليك أنت يا الله".

قالوا كما قال الرئيس عندما اجتمع بالعلماء قال: (نحن الأمراء أصلحنا نفوسنا، الباقي أنتم أصلحوا نفوسكم، أنتم تقولون: ((صنفان من الناس إذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس: العلماء والأمراء)). نحن صلحنا؛ إذاً أنتم أصلحوا). هكذا قد تكون أنت مع الله تقول: "نحن خلاص استقمنا، نحن ما عاد بعُدنا" (٤) باقي أن تفي أنت بما وعدت به، باقي أنت يا الله تنزل البركات، وتعطينا كل شيء بسرعة.

(١) (كم ادّعينا وما جوب، ما هو نافع إلا يقوم واحد هو يدور): من اللّهجة العاميّة، وتعني: كم دعونا الله فما استجاب لنا، لا ينفع إلا أن يقوم الشخص بنفسه ويبحث ويتحرّك.

(٢) (ها ما عاد نشتي يحصل أي حاجة): من اللّهجة العاميّة، والمقصود بها في هذا السياق: لا نريد أن تحدث آية مُشكلة مُستقبلاً.

(٣) معرفة الله (الدرس الأول - الثقة بالله).

(٤) (ما عاد بعُدنا): من اللّهجة العاميّة، والمقصود بها في هذا السياق: لا يوجد أفضل منا.

هل أنت ارتقيت إلى درجة محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) أم أنك قد أصبحت تجعل لنفسك مقاماً هو أعلى من مقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي يقول الله له: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿يَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟ أين هي الذنوب التي قد تتصورها نحن بالنسبة للنبي (صلى الله عليه وسلم)؟ لكن مهما ارتقيت في سلم الكمال لا بد أن تستشعر بأنك لا تزال قاصراً وناقصاً ومقتصراً أمام الله سبحانه وتعالى، لا تزال ناقصاً، لا تزال مقتصراً، لا تستطيع أن تحيط علماً بكل الدائرة من حولك أنها قد أصبحت كلها ظاهرة بنسبة مائة في المائة في كل تصرفاتك، كل أفعالك، كل أقوالك، كل أرائك، كل نظراتك، كل مواقفك، ثم تقول بعد: ”ما عاد بعدنا“ فإذا لم تر الأشياء تتحقق على ما تريد تسخط على الله سبحانه وتعالى؛ هذه جهالة.

الإنسان المؤمن يجب أن يكون دائماً مستشعراً للتقصير أمام الله، الله وصف المتقين بأنهم كما قال عنهم: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران: ١٧) مستغفرين دائماً حتى في تلك الأوقات التي عادة ينهض فيها العباد المنقطعون في العبادة. هم عندما ينهضون في الثلث الأخير من الليل، وفي السحر قبيل الفجر لا ينظرون إلى أنفسهم بأنهم قد أصبحوا ”ما شاء الله، ولا عاد بقي لديهم أي تقصير، وأنه ما بقي لديهم أي ذنب“ يستغفرون الله دائماً ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

أعتقد بالنسبة لقضية (التسبيح) قد يكون معناها واضحاً بالنسبة لنا، لكن كيف نعمل على أن نرسخها في نفوسنا وفي مشاعرنا؟ من خلال التكرير الواعي لكلمة: (سبحان الله) عندما تسبح الله داخل الصلاة أو خارج الصلاة في أي وقت من الأوقات. ثم أن تتلمس دلائل نزاهة الله سبحانه وتعالى، وقديسيته وجلاله وعظمته من خلال آيات القرآن الكريم، ومن خلال صفحات هذا الكون، وآيات هذا الكون الذي بين يديك، هذا العالم لتترسخ في نفوسنا معاني نزاهة الله؛ لأن المؤمن بحاجة إليها دائماً.

ولو أن الناس انطلقوا من هذه القاعدة (قاعدة تنزيه الله) لكانت الدنيا بخير، وكان وجه الدنيا على خلاف ما هو عليه الآن. لكن أصبح - وللأسف - بدلاً من أن تمتلئ القلوب بمشاعر تنزيه الله ملئت القلوب بعقائد نسبت القبائح والنقص إلى الله في ذاته، وأفعاله، وتشريعاته، من أولئك الذين يحملون القرآن بين جنوبهم، في صدورهم، من أولئك الذين يقرؤون كتاب الله سبحانه وتعالى فيرون فيه كم كرر الحديث عن تسبيحه والأمر بتسبيحه، واستنفار كل الخلاق لتسبيحه. لماذا لم يجد هذا في نفوسهم؟ مع أن بعضهم لهم أوراؤ ولهم (رواتب) قد يطلق في اليوم الواحد ألف تسبيحة، (مسابح) ^(١) طولها ألف حبة كان تحصل عند بعض الصوفية، وهم ممن يعتقدون عقائد كهذه.

أحياناً الإنسان إذا لم يكن يعي ما يقول، ويعي ما يقرأ، ويعي ما يشاهد، تكون الأشياء كلها تمر على سمعه وبصره، وتنطلق من لسانه، تمر مرور الكرام، لا تترك أي أثر، حاول أن ترسخ في نفسك دائماً التنزيه لله، وإذا لمست بأنك لا تزال في وضعية قد تتعرض فيها لارتياح فاعلم بأنك لا تزال مهيناً لنفسك أن تكون ضحية للضلال في أي وقت، فيقولون لك: قال رسول الله كذا، وكان السلف الصالح كذا، وقال الصحابي الفلاني كذا، وكان كذا، والمفسر الفلاني قال كذا... ويثرثرون عليك؛ حتى تعتقد عقيدة باطلة هي كفر بنزاهة الله، كفر بقديسية الله، فتؤمن بها على أنها من دين الله، أليس هذا هو من الضلال؟

الله يريد منا أن نتعبد له بقديسيته، بنزاهته، فنأتي لنتعبد بهماذا؟ بالنقص، نتعبد له بنسبة الفواحش إليه، نتعبد له بالسوء، أليس هذا من الباطل؟ الباطل الذي يعتبر باطلاً مضحكاً (وشرُّ البلية ما يضحك).

نجد كذلك التسبيح مما أمر به أولياء الله، والرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول الله له: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ (الطور: ٤٨، ٤٩). وحتى في حالة الشدة كما حدث لنبي الله يونس (عليه السلام) وهو في بطن الحوت ماذا قال؟ ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ ألم يقل سبحانه؟ أنزهك ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧) فإن تكون أنت مؤمن بهذه القاعدة بشكلي واع، وفي كل الحالات؛ لأنها قاعدة إيمانية في كل الظروف لا يمكن لحظة واحدة من لحظات حياتك تقول فيها: أما هذه ما تنزه فيها، أما هذه لا ننزه فيها. لا يصح إطلاقاً. في كل الظروف، في كل الحالات، في كل الشدائد، في حالة الشدة والرخاء، وحالة السراء والضراء، لا بد

(١) المسابح: مفردُها مسبحة، وهي خرزات منظومة للتسبيح.

أن تكون قاعدة ثابتة لديك.

نبي الله يونس عليه السلام ألم يسبح وهو في بطن الحوت ﴿سُبْحَانَكَ﴾؟ هذه لها أثرها الكبير، أنك دائماً سترجع إلى نفسك في كل حدث تواجهه في الحياة، وأنت تعمل في سبيل الله، وأنت ترى نفسك بأنك تسير على نهج أولياء الله، لا ترد اللوم على الله أبداً، حتى وإن كان من عنده ما أصابك فإنما ذلك إِمَّا لأنك أنت كنت جديراً بأن صدر منك ما تستوجب به أن يحصل عليك هذا الشيء، وإِمَّا لأن في ذلك مصلحة لك وحكمة، حكمة من الله أن تلاقي تلك الشدة، أو تحصل عليك تلك المصيبة، لمصلحتك أنت.

من يضعف إيمانهم دائماً يردون - كما نقول نحن - (المحق) يردون المحق في الله، فيحمل الله مسؤولية ما حصل، ثم ينطلق ليبيئ الظن في الله ﴿وَإِذْ رَأَيْتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (الأحزاب: ١٠) فحصل عند البعض عندما حوَّص المسلمون في المدينة مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) في غزوة الأحزاب: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ حتى انطلق بعضهم يسخرون من النبي (صلى الله عليه وسلم) وهم يحضرون الخندق، عندما ضرب الصخرة فانقذت فقال: ((الله أكبر، إني لأرى قصور فارس، إني لأرى قصور الروم، إني لأرى قصور صنعاء)) فقال المنافقون: يبعثنا محمد بأن تفتح لنا هذه المناطق، وما نحن لا يأمن الواحد منا أن يخرج ليبول. ألم يقولوا هكذا؟ انطلق بعض الناس يقول هكذا.

في (سورة آل عمران) بعد أحداث (أحد) حصل في غزوة أحد شذائد، وحصل فيها ما جعل البعض يرتبك، ما جعل البعض ينظر أنه لماذا أصابنا هذا الشيء ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٦٥) أرادوا أن ينسبوا إلى الله (المحق منه، هو السبب، يمكن نسي، يمكن...) يعني في واقع الحال أنت قد تكون تتعامل مع الله على هذا النحو: ربما نسي، ربما لم يف، ربما... وإن لم تنطق أنت بهذه، سوء الظن.

ففي مسيرة العمل، عندما يكون الموقف مع الله موقفاً ثابتاً، تنزيهه نزاهته لا يمكن أن يخلف وعده أبداً. فمتى ما مرَّ الناس بصعوبة ما رجعوا إلى أنفسهم، وإلى واقع الحياة: ربما حصل خطأ من عندنا ونحن نرتب المسألة على هذا النحو، وربما حصل خطأ من عندنا أنه ضعفت ثقتنا بالله عندما رأينا أنفسنا كثيراً، كما حصل في يوم حنين ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (التوبة: ٢٥) لأنهم رأوا أنفسهم كثيراً وكانوا لا يزالون بعد نشوة النصر بعد فتح مكة فاتجهوا لقتال هوازن، وبعض القبائل الأخرى، فقال البعض: (لن نهزم اليوم من قلة) رأى جموعاً كثيرة، لن نهزم اليوم من قلة. وعندما يكون هذا الشعور داخل الكثير، بدل أن تكون النفوس ممتلئة باللجوء إلى الله، واستمداد النصر منه، والتأييد منه، الذي تُعبر عنه الآية: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٠) لن نهزم اليوم من قلة. فهزموا هزيمة منكرة.

الإيمان على هذا النحو هو الذي يدفع الناس إلى أن يرجعوا إلى أنفسهم فيصححوا أخطأهم ويكتشفوا أخطأهم، ويحسنوا من أوضاعهم، ويحسنوا خططهم، ويحسنوا تصرفاتهم، ويظلوا دائماً دائماً مرتبطين بالله مهما بلغت قوتهم، مهما بلغ عددهم، يظل ارتباطهم بالله قوياً، ارتباطهم بالله وهم مائة ألف كارتباطهم بالله يوم كانوا ثلاثمائة شخص أو أقل، متى ما انفصل الناس عن الله، ورأوا أنفسهم وكأنهم في حالة لا يحتاجون معها إلى تأييد من الله سيُضربون، سيُضربون (لن نهزم اليوم من قلة) هي التي ضربت المسلمين في حنين.

وفي يوم أحد ما الذي ضربهم؟ هو العصيان للرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما عصى البعض وسكت الباقيون فكان معصيته هي تعبر أو أنها تحظى برضاء الآخرين، أي لم يستنكروا ما حدث من أولئك عندما تخلفوا عن الحفاظ على الموقع الذي أكد عليهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يظلوا فيه ولا يبرحوا منه، فحصل أن ضربوا ضربة شديدة، وهزموا هزيمة منكرة، بعد أن كانوا في بداية المعركة كما قال الله عنهم: ﴿تَحْشَوْهُمْ﴾ يعني قتل هكذا، وكأنه قتل بسهولة وسريع ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحْشَوْهُمْ يَازِيهِ حَتَّى إِذَا فُشِنْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٢) حصل ما حصل، فحصلت هزيمة، وحصل قتلى، وقتل نحو سبعين شخصاً.

الإيمان بالله سبحانه وتعالى الذي يعني فيما يمثل من التجاء إلى الله في كل الظروف، ثم إيمان بأهمية

الاستمرارية على أسباب النصر هي جزء من الإيمان بالله. وأنت إذا لم تلتزم فقد يحصل عليك مصيبة ثم تحمل الله المسؤولية، ثم تسيئ ظنك بالله، وتكون أنت في الواقع الذي جنيت على نفسك من البداية ﴿أَوَلَمْ آتَاكُمْ مَصِيبَةٌ قَدْ أَصَابْتُمْ بِمِثْلِهَا فَلْتَمَّ آتَىٰ هَٰذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٦٥).

وهكذا إذا تأمل الإنسان كم سيجد لتنزيه الله سبحانه وتعالى من أهمية بالغة مرتبطة بكل القضايا، في كل الميادين، في مواجهة المفسدين، في مواجهة المضلّين، في مواجهة أعداء الله، حتى في المواجهة الكلامية في حالات النقاش، وأنت تنطلق من قواعد ثابتة، مهما تمّ الطرف الآخر كلامه أمامك، وزين شبهته لديك، لن تضطرب أبداً؛ لأنك ستري أن كل هذا الكلام المنمّق الذي جاء من جانبه مبنيّ على أساس فاسد، المسألة من أساسها غير صحيحة، لو قبلناها كان ذلك يعني: خدشاً في نزاهة الله سبحانه وتعالى، فيما يتعلق بحكمته، فيما يتعلق بعلمه، فيما يتعلق برحمته، فيما يتعلق بتدبيره، فيما يتعلق بأيّ شيءٍ من كماله سبحانه وتعالى، فلن تهتز أبداً. في الأخير يقول لك: هذا الحديث رواه فلان ورواه فلان وأخرجه فلان وتلقاه فلان، وقال الإمام الفلاني ورواه الفلاني، أليست ستأتي عبارات زحمة من هذه؟ "يُصَوِّخُوهُ لَمَّا أَحْسَبَ قَدْ هُوَ صِدْقٌ" (١). لا. ليقول لك ما قال ورواه فلان وأخرجه فلان، وذكره فلان، وحكاه فلان، وكان يدين به فلان... إلخ.

المسألة من أساسها انظر ما هي النتيجة في الأخير، مبنية على ماذا؟ ثم ماذا سيترتب عليها؟ هي تخالف مخالفة صريحة مقتضى نزاهة الله سبحانه وتعالى الذي هو معنى تسبيحه وتقديسه؛ إذاً لا يمكن أن تقبل مهما كانت الضجة حولها؛ لأن الضجة هنا أو الكلام الكثير المؤكد هنا في القرآن الكريم في مجال التسبيح أو فيما يتعلق بالتسبيح هو الشيء الذي يجب أن يسيطر أثره على مشاعرك، فلا تتأثر بأيّ ضجة أخرى مهما كثرت. كما قلنا: إنها قد تحصل ضجة كثيرة أمامك، وأنت تقرّ أمثالاً، وأنت تدخل في نقاش مع شخص آخر، ويقول: رواه البخاري ومسلم وذكره الترمذي، وحكاه فلان وذكر فلان، وقال فلان إنه مما أجمع عليه السلف الصالح وحكى... إلى آخره، كلام كثير. لكن هؤلاء الذين عرضهم جميعاً الله - بالنسبة لهذه القاعدة - عرض ما هو أكثر منهم بكثير ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة: ١) أليس هؤلاء أكثر من البخاري ومسلم وفلان، وفلان... إلى آخره؟ فهذه القاعدة مهمّة جداً. وإذا أردت أن تعرف أهميتها فانظر إلى القرآن الكريم ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة: ١) وسور في القرآن الكريم تتصدر بالتسبيح على هذا النحو: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (الحشر: ١) أو ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الحديد: ١) وفي أواخر بعض السور وداخل السور بهذا اللفظ العام ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا يدل على أهميته، وأنت بحاجة إلى أن تستشعر أهميته، وتنطلق منه في كل مواقفك.

وأنت طالب علم عندما يقولون لك: (مما امتاز به مذهبنا هو الحرّية الفكرية، فالإنسان يقرأ وله حق أن يرجّح وينظر، ثم له حق أن يجتهد فيما بعد إذا ما توفرت له آلة الاجتهاد فأصبح يستطيع أن يستنبط، وأن ينظر، وأن يرجّح، وأن يقرّر، وأن... إلى آخره). هم يخاطبونك بهذا الكلام بمفردك.

ارجع إلى هذه القاعدة: هل ممكن أن يكون الله سبحانه وتعالى يوكل أمر الهدى إلى الناس، أم أنه هو الذي يتولّى هذه القضية عندما يقول: ﴿إِنِّي عَلَيْنَا لَأَهْدِي﴾ (البقرة: ١٢) ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ (النحل: ٩)؟ وهل هذه النتيجة ممكن أن تكون مقبولة عند الله؟ وهل هي منسجمة مع حكمته، مع رحمته، مع كونه الملك، الإله، الرب؟ ينسجم مع هذا كله أن ينطلق كل واحد منا - ونحن طلاب علم - فهذا يرجّح خلاف ما رجّح هذا، وهذا يقرّر خلاف ما قرّر هذا، وكل واحد منا يدّعي بأن ما وصل إليه هو دين الله، وهو شرع الله. فكلما اتسعت دائرة المتعلمين، وكلما اتسعت دائرة المجتهدين كثرت الأقوال وكثر الاختلاف، فصعد كل شخص وحده، وتحرك بمفرده، وانطلق كل منهم يدعو إلى ما توصل إليه. اختلاف شديد، اختلاف رهيب، تعدّد أقوال، وكل منها تنسب إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا يخطئ هذا، وهذا يخالف هذا، وتفرّق فلا تجتمع لهم كلمة في أغلب الأحوال، في أغلب الأحوال لا تجتمع لهم كلمة.

تقول في الأخير: هل يمكن أن يكون دين الله على هذا النحو؟ وهل الله يريد منا أن نكون على هذا النحو، فقدّم

(١) (يُصَوِّخُوهُ لَمَّا أَحْسَبَ قَدْ هُوَ صِدْقٌ): من اللهجة العاميّة، والمقصود بما في هذا السياق: يُتَوَهَّوْنَهُ حَتَّى يَظُنُّ أَنَّ هَٰذَا الْحَدِيثَ صَحِيحٌ.

لنا دينه هكذا، وأراد من كل واحد منا أن يتحرك هو بمفرده، فما أداه إليه نظره واجتهاده سار عليه، وهكذا الثاني، وهكذا الثالث، والرابع... إلى آخر الدائرة، وإن كانوا آلاف المتعلمين، وآلاف العلماء؟ وأنت ترى وتشاهد أن هذه وسيلة من وسائل الاختلاف والتفرق. فهل الله سبحانه وتعالى الإله، الملك، هل هذا تديره لشؤون عباده؟ هل هذا تشريعه لعباده؟ هل هذا ما يتناسب مع توحيده: أن ينزل للناس شرعاً يفرقهم ويشتملهم، وأن يقبل من كل واحد ما أداه إليه نظره واجتهاده؟ وعندما تنظر إلى داخلهم ترى الأشياء المتباينة المتضادة المتخالفة التي لا يمكن أن تكون كلها حقاً، نقول: لا، سبحان الله، سبحان الله أن يكون شرعه على هذا النحو، أن يرضى لعباده هذه الطريقة، أن يكون هذا هو ما يريده منهم، أن تصبح هذه هي ميزة ما شرعه لعباده، ميزة الإسلام، وأنها هي التي يمتاز بها الإسلام، فنقول: حرية الفكر.

لوقرنا ذلك لاحتجنا أن نقرره شرعاً، أي: نحتاج إلى أن نصبغ ما نقرره بصبغة دينية ننسبها إلى الله سبحانه وتعالى، أنه أراد منا هكذا، أن نكون على هذا النحو، أن كل واحد منا ينطلق على هذا النحو بمفرده، إذاً فهو شرع هذا، وهو في الوقت نفسه يقول في القرآن الكريم: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣) ثم يقول بعد: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (آل عمران: ١٠٥).

إذاً ستقول: كيف تنهى هنا عن الاختلاف والتفرق، وتهدد بالعذاب العظيم عليه، وتأمراً بالاعتصام الموحد الجماعي بحبل واحد، ثم أنت في الوقت نفسه تشجع ما هو منبع من منابع الاختلاف والتفرق؟! حيث أجزت لكل واحد منا، أو أردت من كل واحد منا أن ينطلق هو بمفرده فيعتمد على ما أداه إليه نظره وترجيحه، ونحن نرى أن الأنظار تختلف، والنتائج تختلف. ألم يختلف شرع الله هنا؟ ألم يؤد إلى اختلاف؟

نسبح الله، نزه الله أن يمكن أن يكون هذا من شرعه، أن يكون في شرعه اختلاف، ويكون في شرعه تناقض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢) ولا يعني الاختلاف هو الاختلاف في ألفاظ النصوص، بل الاختلاف في الغايات أيضاً، الاختلاف في النتائج أيضاً. فلا يمكن أن يشجع هنا شيئاً ثم يشجع أيضاً شيئاً آخر يؤدي في الأخير إلى نتيجة تخالف نتيجة ما شرعه هنا. أو يهدي إلى شيء، ثم يهدي إلى شيء آخر يؤدي في الأخير إلى ضرب ذلك الشيء الأول؛ هذا هو الاختلاف أيضاً، بل هو الاختلاف الحقيقي أكثر من اختلاف النصوص ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ هنا نحتاج - كطلاب علم - أن نسبح الله نقول: سبحانك، لا يمكن أن تتناقض، لا يمكن أن يختلف هداك، لا يمكن أن يتعارض هديك، لا يمكن أن تتعدد طرقك، وأنت الذي تقول: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

وهكذا نحتاج إلى تنزيه الله في كل شيء، وأنت طالب علم، وأنت تاجر، وأنت فلاح، وأنت عالم، وأنت فقير أو أنت غني، وأنت مجاهد أو أنت قاعد، وأنت صحيح أو أنت مريض، نحتاج إلى هذه القاعدة، أن تنطلق منها، وهي التي ستحرك وتوجهك إلى الصواب، فتعرف ما هو الموقف الصحيح الذي يجب أن تقفه في كل الأحوال، وفي كل الظروف. هذا ما أفهمه بالنسبة لقضية التسبيح.

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المسبحين له، المنزهين له، وأن ترسخ في أعماق نفوسنا مشاعر عظمته وتنزيهه وقديسيته، إنه على كل شيء قدير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[الله أكبر / الموت لمريكا / الموت لإسرائيل / اللعنة على اليهود / النصر للإسلام]

تم هذا الإخراج الجديد بعد مزيد من

المراجعة والمقابلة مع (الكاسيت) الصوتي

بتاريخ: ١٨ من ذي الحجة ١٤٣٧ هـ

الموافق: ١٩ / ٩ / ٢٠١٦ م

دروس من سورة آل عمران	الدرس الأول ٢٠٠٢/١/٨	الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/٩	الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/١١	الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/١٢
دروس من سورة المائدة	الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٣	الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/١٤	الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/١٥	الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/١٦
دروس معرفقة الله				
الثقة بالله - الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٨	نعم الله الثاني ٢٠٠٢/١/١٩	نعم الله الثالث ٢٠٠٢/١/٢٠	نعم الله الرابع ٢٠٠٢/١/٢١	نعم الله الخامس ٢٠٠٢/١/٢٢
عظمة الله الدرس السادس ٢٠٠٢/١/٢٣	عظمة الله الدرس السابع ٢٠٠٢/١/٢٥	عظمة الله الدرس الثامن ٢٠٠٢/١/٢٦	وعده ووعيده الدرس التاسع ٢٠٠٢/١/٢٨	وعده ووعيده الدرس العاشر ٢٠٠٢/١/٢٩
وعده ووعيده الدرس الحادي عشر ٢٠٠٢/١/٣٠	وعده ووعيده الدرس الثاني عشر ٢٠٠٢/٢/٤	وعده ووعيده الدرس الثالث عشر ٢٠٠٢/٢/٥	وعده ووعيده الدرس الرابع عشر ٢٠٠٢/٢/٦	وعده ووعيده الدرس الخامس عشر ٢٠٠٢/٢/٨
دروس متفرقة				
الصرخة في وجه المستكبرين ٢٠٠٢ / ١ / ١٧	أَشْرَوْا بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ٢٠٠٢/١/٢٤	الهوية الإيمانية ٢٠٠٢/١/٣١	في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (١) ٢٠٠٢/٢/١	في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (٢) ٢٠٠٢/٢/٢
خطر دخول أمريكا اليمن ٢٠٠٢/٢/٣	لتحزن حذو بني إسرائيل ٢٠٠٢/٢/٧	معنى الصلاة على محمد وعلى آل محمد ٢٠٠٢/٢/٨	معنى التسبيح ٢٠٠٢/٢/٩	﴿وَلَنِي تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ ٢٠٠٢/٢/١٠
﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنَّ﴾ ٢٠٠٢/٢/١١	الإرهاب والسلام ٢٠٠٢/٢/٨	مسؤولية طلاب العلوم الدينية ٢٠٠٢/٣/٩	خطورة المرحلة ٢٠٠٢/٣/١٦	دروس من وحي عاشوراء ٢٠٠٢/٣/٢٢
﴿وَمَحْيَا وَمَمَاتٍ لِلَّهِ﴾ ٢٠٠٢/٧/٢٦	الثقافة القرآنية ٢٠٠٢/٨/٤	آيات من سورة الكهف الجمعة ٢٠٠٣/٨/٢٩	﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ٢٠٠٢/٩/٢	الإسلام وثقافة الاتباع ٢٠٠٢/٩/٢
لا عذر للجميع أمام الله ٢٠٠٢/١٢/٢١	مسؤولية أهل البيت ٢٠٠٢/١٢/٢١	أمر الولاية ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٢هـ	يوم القدس العالمي ٢٨ رمضان ١٤٢٢هـ	دروس من غزوة أحد ذو الحجة ١٤٢٢هـ
آيات من سورة الواقعة ١٠ رمضان ١٤٢٣هـ	الشعار سلاح وموقف ١١ رمضان ١٤٢٣هـ	ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام ١٩ رمضان ١٤٢٣هـ	حديث الولاية ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٣هـ	﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ١٤٢٣هـ
الموالات والمعاداة ١٤٢٣هـ	﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾	الوحدة الإيمانية	﴿فَبِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾	﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾
دروس مديح القرآن من الدرس الأول إلى الدرس السابع من تاريخ ٢٠٠٢/ ٥/ ٢٨ إلى تاريخ ٢٠٠٣/ ٦/ ٣				
دروس شهر رمضان المبارك ١٤٢٤ هـ				
سورة البقرة: الآيات (٢٩-٢١) ٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٤٠-٦٦) ٤ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٦٧-١٠٣) ٥ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (١٠٤-١١٤) ٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (١١٥-١٤٥) ٧ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة البقرة: الآيات (١٤٦-١٨٦) ٨ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (١٨٧-٢١٤) ٩ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٢١٥-٢٥٢) ١٠ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٢٥٣-٢٧٤) ١١ رمضان ١٤٢٤هـ	الآيات (٢٧٥-٣٢) من البقرة- آل عمران ١٢ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة آل عمران: الآيات (٣٣-٩١) ١٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة آل عمران: الآيات (٩٢-١١٦) ١٤ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة آل عمران: الآيات (١١٦-١٦١) آخر السورة ١٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة النساء: الآيات (١-٤٢) ١٧ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة النساء: الآيات (٤٣-١١٦) ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة النساء: الآيات (١٣٥- آخر السورة) ٢٠ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (١-٢٦) ٢١ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (٢٧-٥٧) ٢٢ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (٥٨- آخر السورة) ٢٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأنعام: الآيات (١-٣٩) ٢٤ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة الأنعام: الآيات (٣٩-١٠٢) ٢٥ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأنعام: الآيات (١٠٣- آخر السورة) ٢٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١-١٣٧) ٢٧ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١٣٨-١٦٢) ٢٨ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١٦٣- آخر السورة) ٢٩ رمضان ١٤٢٤هـ



